

■ الباب الأول ■

خلاصة الخلاصة حول نظام الوزارة

تمهيد - الوزارة العربية في الشرق
الإسلامي: قبيل عصر الرسول ﷺ
حتى القرن الخامس الهجري

obbeikandi.com

تمهيد : (الدوافع لكتابة هذا الباب)

لقد آثرت وأنا أحاول دراسة شخصية الوزير «نظام الملك» أن أغتني هذه الفرصة فأمهد لها بخلاصة ضافية عن نشأة الوزارة وتطورها في دولة الخلفاء حتى عصر «النظام»، بل وجدت ذلك لزاماً علىّ جديراً بدراستي حيث رأيت غلو الدارسين للنظم الإدارية في الإسلام بأنها مستقاة من منابع أجنبية ليس للعرب فضل فيها. فهي إما شرقية مستمدة من الفرس أو الهنود أو منهما معاً وإما غربية مقتبسة من اليونان أو الرومان أو من هؤلاء وأولئك جميعاً.

وقد انتهيت من ذلك كله إلى نتيجة وإن كانت - كما يبدو - بديهية، فقد أدى بي البحث إلى أن نظام الوزارة في الإسلام لم يكن ساسانياً بالمعنى الذي تخيله أولئك الدارسون كما لم يكن رومانياً كما تصوره الآخرون، وإنما هو ظاهرة حضارية تعاونت على إيجادها عوامل اجتماعية من ثقافة وسياسة ودين طبقاً لناموس الطبيعة المتطورة وتحقيقاً لتيجة التفاعل بين الإنسان والزمان والمكان.. كما توصلت إلى أنه في عهد «نظام الملك» قد بلغ الذروة من ناحية مراسيم الوزير وتحديد اختصاصاته والاعتراف بأهمية منصبه وأثره في تقدم الدولة ومعرفة الأعباء الملقاة على عاتقه سواء ما يتصل بعلاقته مع رئيسه أو مرءوسيه .

وسيكون حديثنا بالطبع قاصراً على الناحية الحضارية من الوزارة؛ لتفسير نشأتها وتطورها التاريخي ثم منزلتها ووظائفها. أما الناحية التشريعية من حيث

وجوبها أو جوازها وموقف المشرّع من الوزير إذا قصرّ في أداء مهمته ومتى يلزم عزله أو نقله وأمثال ذلك، فإنها من الموضوعات الفقهية في كتب الأحكام السلطانية.

إن الحديث عن تاريخ - الوزارة - لغةً ومنصبًا عند العرب قبل الإسلام وبعد ظهوره حتى نهاية العصر العباسي، طويل يستوعب كتابًا بأبواب وفصول، خصوصًا بعد ارتباطها بالخلافة التي انقسمت إلى ثلاث دول:

الأولى: العباسية في بغداد، ثم الأموية في الأندلس، والفاطمية في القاهرة.. والتي شارك في استخدامها: السلاطين والملوك والأمراء. لذلك فضلت تقديم خلاصة الخلاصة إلى القارئ من الجزء الأول الخاص بدراسة هذا النظام وقد قسّمته إلى ثلاثة فصول، والاكتفاء بالجزء الثاني الذي يختص بسيرة «نظام الملك» وزير السلاجقة الأوائل.

ومن الله التوفيق، وهو حسي ونعم الوكيل.

* * *

● الفصل الأول

الوزارة فى اللغة العربية

- ورودها فى القرآن والحديث.
- وفى مؤتمر سقىفة بنى ساعدة.
- وفى عصر الخلفاء الراشدين.
- وفى أواخر العصر الأموى.
- وفى المعاجم اللغوية.

obbeikandi.com

توطئة : (الدوافع لكتابة هذا الباب)

لم يكن هذا اللفظ بالمستغرب على آذان العرب حين سمعوه على لسان الرسول في القرآن تارة وفي الحديث أخرى، ولو كان غريباً عليهم لما جاء فيهما، ولما استعملوه في حوارهم السياسي في سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول مباشرة، وليست هذه المواضع الثلاثة بخافية على الدراسين ولكننا نجد من مستلزمات البحث عرضها بإيجاز؛ لأنها الوثائق التاريخية التي لا تقبل الجدل والشك في فهم العرب لهذا اللفظ واستعماله في معناه الوظيفي في الحكم على معنى القيادة والزعامة منذ وقت مبكر.

أ) ورودها في القرآن :

لقد كان هارون وزيراً لموسى كما أخبر القرآن عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ (١).

فكانت هذه الآية جواباً على سؤال موسى في قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ بَيْتِي﴾ (٢).

وقد أجمع المفسرون على أن معنى الآية دعاء موسى ربه بالبسماع له لأن يتخذ من هارون وزيراً له ليقوى به ظهره ومركزه الاجتماعي، وفي هذا المعنى تأكيد لحاجة شعر بها العرب آنذاك، وتنبية على ضرورة دنيوية لا يستغنى عنها

(١) سورة الفرقان - الآية ٣٥.

(٢) سورة طه - الآيات ٢٩ - ٣٣.

الملوك وإن علموا الكثير من أمورها فإن موسى بن عمران عدّه القرآن نبياً مرسلًا ووصفه كليماً لله، ومع ذلك فقد دعى ربه أن يجعل له وزيراً من أهله ليشركه فى إدارة أعماله وقد حقق الله له ما تمناه .

(ب) وفى الحديث :

وقد روى عن الرسول ﷺ بهذا الصدد حديثان قال فى أحدهما: إن لى وزيرين فى السماء ووزيرين فى الأرض باللذان فى السماء جبريل وميكائيل . واللذان فى الأرض هما أبو بكر وعمر^(١) ثم يرد تأييداً لذلك يدعّم صحة هذا الخبر وصدق نسبته للرسول على لسان (زيد بن على) حين طلب إليه جماعة من الغلاة أن يلعن الخليفين كشرط للمبايعة فقال: والله ما أكتب لألعن وزيرى جدى، فرفضوه فسموا بالرافضة^(٢) .

وقال فى ثانى الحديثين وقد اسندوه إلى عائشة فورد بصورة مختلفة، ولكنه واحد من غرضه ومؤداه . . قالت: قال رسول الله: «إذا أراد الله بالأمر خيراً جعل له وزير صدق إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره وإن ذكره لم يعنه»^(٣) وفى عهد الرسول ﷺ ما أثار عن - زيد بن ثابت - أنه قال: «نحن أنصار الله ووزراء رسوله ردّاً على خطيب من تميم»^(٤) .

(ج) وفى مؤتمر السقيفة :

وكان قد اجتمع كبار المهاجرين والأنصار يتداولون الرأى فيمن يتخلف الحكم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال سعد بن عبادة - زعيم الأنصار: «الإمامة فىنا وفيكم، منا أمير ومنكم أمير». فقال أبو بكر زعيم

(١) التورى: تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١٨٨، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) عبد الحى الكتائبى - التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٧ .

(٣) ابن الأثير: النهاية ص ٢٠٧، ٢٠٨ .

(٤) الطبرى ج ٣ . ١١٦ .

قريش: «نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإمامة فى قريش دون غيرها ونحن الأمراء وأنتم الوزراء»^(١)، وبوبيع أبو بكر خليفة على المسلمين.

(د) وفى عهد الخلفاء الراشدين :

وجاء عهد الخليفة الثانى عمر وقام بأعمال جسام فى التنظيمات الإدارية، ومما حكى عنه بصدد موضوعنا أنه كتب إلى أهل الكوفة: «أنى بعثت إليكم عمّار بن ياسر أميراً وبعيد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وآثرتكم به على نفسى فخذوا عنه»، فقدم الكوفة وابتنى داراً إلى جانب المسجد .

وفى عهد الإمام على^(٢) كتب إلى واليه بمصر - مالك الأشتر النخعى: «أن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً»، كما روى عنه أنه حينما طلب إليه المبايعة بعد مقتل عثمان أنه قال: «التمسوا غيرى فأكون لكم وزيراً خيراً من أن أكون أميراً»^(٣).

(هـ) وفى أواخر العهد الأموى :

ولعل آخر نص نتلقاه فى استعمال هذا اللفظ وشيوع معناه فى عهد الدولة الأموية كان عند بداية قيام الدولة العباسية فقد روى المسعودى عن المنقرى أنه قال: «سئل بعض شيوخ بنى أمية عقب زوال الملك عنهم: ما كان سبب زوال ملككم/ فقال: إننا انشغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده رعينتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخرجت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقيهم على منافعنا وأمضوا أموراً أخفوا علمها عنا...»^(٤).

(و) وأخيراً فى المعاجم اللغوية :

ثم جاءت القراميس العربية شارحة هذا اللفظ مفصّلة معانيه ولعل فى إيجاز

(١) نشوان الحميرى - الحور العين ص ٢١٢، وابن الأثير - النهاية ج ٤ ص ٢٠٧.

(٢) طبقات ابن سعد - مجلد ٢ قسم ٢ ص ١١٧.

(٣) ابن أبى الحديد - شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٥٦، ١٣٠، ١٦٠، ومحمد عبده - شرح النهج ج ٣ ص ٩٢.

(٤) المسعودى - مروج الذهب ج ٢ قسم ٢ ص ١١٧.

تلك المعانى التى فصلتها كبار المعاجم اللغوية من الفائدة - التى ينبغى ألا تغفلها - لإيضاح الغرض الذى نقصده وتأييد الهدف الذى نرمى إليه .

فهذا ابن منظور فى لسانه يقول: «وأصل الوزر: الجبل المنيع، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به، فهو وزر. والوزر: الحمل الثقيل، والذنب لثقله، وجمعها أوزار ومنه أوزار الحرب»^(١).

والوزير حباه الملك الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه وقد استوزره وحالته الوزارة والوزارة بالكسر أعلى. ووازره على الأمر أعانه وقواه والأصل آزره. قال ابن سيده: «ومن هاهنا ذهب بعضهم إلى أن الواو فى وزير بدل من الهمزة، وفى التنزيل: ﴿وَأَجْعَلِ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ الْبَيْتِ﴾ هَرُونَ أَخِي»^(٢).

قال: الوزير الجبل الذى تعصم به لينجى من الهلاك وكذلك وزير الخلافة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره يلتجئ إليه. وقيل لوزير السلطان: وزير لأنه يزر عن السلطان أثقال ما أسند إليه فى تدبير المملكة أى يحمل ذلك. الجوهري: الوزير: الوزارة كالوكيل المتواكل لأنه يحمل عنه وزره أى ثقله، وقد استوزر فلان فهو يؤازر الأمير ويتوزر له.

وفى حديث السيف: «ونحن الأمراء وأنتم الوزراء» جمع وزير، وهو الذى يؤازره ويتحمل عنه حمله من الأثقال والذى يلتجئ الأمر إلى رأيه وبتدبيره فهو ملجأ ومفزع».

وفى معاجم اللغة: «وزرت الشيء آزره وزراً» أى حملته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْرُوزِرُوا زُرَّةً أُخْرَى﴾^(٣).

وفى التهذيب: وأما الاتزار فهو من الوزر، ويقال: وازرنى فلان على الأمر وآزرنى والأول أفصح. وقال: أوزرت الرجل فهو مؤزر. جعلت له وزيراً يأوى إليه. وآزرت من المؤازرة»^(٤).

(١) أوزار الحرب: أثقالها من معدات وأدوات وتبعات.

(٢) سورة طه - الآيتان ٢٩، ٣٠.

(٣) سورة الأنعام - من الآية ١٦٤.

(٤) لسان العرب - مادة وزر ج ٧ ص ١٤٦.

وقال الزبيدي فى تاج العروس على القاموس: «ومن المجاز: الوزير - كأمير - حباه الملك الذى يحمل ثقله عنه ويعينه برأيه، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجئ إليه».

وقد قيل لوزير السلطان وزير: لأنه يزر عنه أفعال ما أسند إليه فى تدبير المملكة، أى يحمل ذلك.

قال الزمخشري: «وزير الملك الذى يؤازره أعباء الملك أى تحامله، وليس من المؤازرة: المعاونة لأن واوها عن همزة وفعيل منها - أوزير - وأوزره أوثقه وحباه. والوزير علم من الأعلام»^(١) وفى نهاية ابن الأثير قال: «وفى حديث السقيفة . . نحن الأمراء وأتم الوزراء: جمع وزير وهو الذى يؤازره فيحمل عنه ما حمل من الأفعال. والذى يلتجئ الأمير إلى رأيه وتدبيره فهو ملجأ ومفزع»^(٢).

* نتائج وملاحظات:

والذى يمكننا استنتاجه من النصوص السابقة شيان مهمان فى موضوعنا هذا. أولهما: ما يتصل باشتقاق اللفظ وأصله. والثانى: بمعناه ودلالته.

أمّا الأول: فإن هذا المصطلح الحضارى عربى أصيل إذ جرت عادة مؤلفى المعاجم وقواميس اللغة أن يثبتوا عند شرح النصوص أنّ هذا اللفظ معرّب أو أنه فارسى معرّب أو أنه دخيل. وقد يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيقول: «إنه معرّب بلا خلاف». ومما يلفت النظر ويدعو إلى الانتباه ألا نجد واحداً من هذه النقول جميعها من أشار إلى ذلك سوى الثعالبي، حيث قال: «وقيل هو فارسى معرّب وأصله من الزور، وهو عندهم اسم للشدة والقوة والمعنى فيه أن يشدّ صاحب الدولة ويقويه ويعينه على ما هو بصدده، والأظهر أنه من المساعدة والاعانة»^(٣).

(١) تاج العروس فى شرح القاموس - مادة وزر ج ٣ ص ٢٠٢ . .

(٢) ابن الأثير - النهاية ج ٤ ص ٢٠٨ . .

(٣) الثعالبي هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٤٢٦ هـ فى كتابه تحفة الوزراء ص ٤١ .

وثانى الشين: وهو لا يقل أهمية عن سابقه أن معنى الوزرة كما تفيده تلك النصوص إنما هو حمل الأعباء كافة عن الخليفة أو السلطان. وليت معاونته فيها كما ذهب ابن خلدون عند تفسيرها^(١)، وذلك لأن الوزرة مشتقة إما:

١ - من الوزر بالفتح والتحريك بمعنى الجبل وكل معقل يلجأ إليه وهو المعنى الحسى الأصل، ثم انتقل إلى معنى الملجأ والمعتمى ومنه الآية: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾^(٢).

٢ - من الوزر بالكسر والتكين بمعنى الثقل والسلاح ثم تدرج إلى معنى الإثم والذنب لأنه حمل ثقيل، ومن الأول قوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٣).

ومن الثانى قولهم على المجازر «أوزار الحرب» أثقالها وآلاتها. . وأحدها الأزر وقيل لا واحد له.

٣ - من الأزر وهو الظهر ومنه انتقل المعنى إلى القوة والمساندة كما يقوى الظهر الجسم ويسنده وعليه الآية: ﴿وَأَجْعَلِ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِ﴾^(٤).

ويرى كثير من المؤرخين أنها مأخوذة من الثانى، ومنهم عدا من سبق ذكره «ابن خلكان»، وأن الوزرة مشتقة من الوزر كأن يحمل الثقل من السلطان^(٥). ويعلل الزمخشري لذلك تعليلاً صرفياً، لأن الصرف وإن اختص بالاشتقاق وتغاير الحروف فإنه يتصل بالمعنى كالتحو فيقول: «لأن واوها من همزة، وفعيل منها أوزير - كما ذكرنا قبل قليل^(٦) على أننا وجدنا من يؤيد ابن خلدون فيما ذهب إليه وهو أبو إسحاق الزجاج حيث يقول: «إن الوزير معناه، الذى يعتمد عليه الخليفة ويلجأ إلى رأيه»^(٧).

(١) ابن خلدون - المقدمة ص ١١٥ .

(٢) سورة القيامة - الآية ١١ .

(٣) سورة الأنعام - من الآية ١٦٤ .

(٤) سورة طه - الآية ٣٢ .

(٥) ابن خلكان - الوفيات ج ١ ص ٤٤٥ .

(٦) الزمخشري - أساس البلاغة - مادة وزر ص ٤١٧ .

(٧) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٩ .

وقد فرّق بعضهم بين وزارتين فحدّ الأولى: بالخلافة، والثانية: بالسلطنة، فخصّ وزير الخلافة بالاعتماد على رأيه واللجوء عند الحاجة إليه، ووزير السلطان بحمل الأثقال عنه بما أسند إليه من تدبير المملكة.

تلك هي الجذور الأصيلة التي اشتق منها لفظ (الوزارة) وهي موجودة في العربية منذ فجر الإسلام وقبيل ظهوره بدليل استعماله في القرآن والحديث، وليس هناك ما يبرر التردد في أصلها أو إرجاعها إلى أصل فارسي وإن وجد ما يماثلها في النطق أو يشاكلها في الحروف. والوزارة كاخلافة مصطلح عربي أصيل في مبناه ومعناه واستعماله.

لقد توصلت إلى هذا الرأي، ومن طريف الاتفاقات أن أجد من يؤيده في ضحى الإسلام ج ١ ص ١٧٢ لأحمد أمين إذ رأيتهُ يؤيدني عليّ أن أصل الكلمة عربي. خلافاً لما ذهب إليه بعض المستشرقين بأن أصلها VICIIRA ومعناها الأمر والتقدير.

ومهما اختلفت مصادر الاشتقاق التي أنتقل منها ومال بعضهم إلى واحد منها وآخرون إلى غيره فإنني أفضل رأي القلة ومنهم «ابن خلدون» وإن جاز لنا تفضيل أحد الرأيين، لأن المعاونة هو المعنى الذي يوحيه هذا اللفظ عند إطلاقه مع اختلاف درجة الوزير. فالوزارة إن كانت من المؤازرة والمساندة للسلطان في تدبير أموره، وإن كانت من الوزر فهي المشاركة له في حمل أثقاله سواء أكان إثمًا أم عبئًا، وإن كانت من الأزر فهي المساهمة في تقوية شأن السلطان وإعلاء كلمته. . وإن مفهوم الآية الكريمة التي هي الوثيقة الأولى في معنى هذا اللفظ تؤيد هذا المعنى، كما تميل إلى أن الأزر الذي جاء متممًا للوزارة في الآية نفسها إنما هو المصدر الصحيح لاشتقاقها.

والشيء الأخير الذي ينبغي أن نختم به موضوع أصل اللفظ ومؤداه والذي أجد فيه سنداً لفكرة أصالته العربية، وما وصل إلينا من تاريخ الوزارة في الدولة الساسانية، فإن الألفاظ التي استعملت ألقابًا للوزير هي:

١ - هزاريار: ومن قبل كانت هزارياني بمعنى رئيس ألف رجل أيام الاكمينيين.

٢ - هزاريت دارن أرياتش ومعناها صاحب الأمر الكبير عند الأرمن.
٣ - بزرگ فرما دار - مضافاً إليه - إيران وغير إيران . أحياناً بمعنى الحاكم الكبير لإيران وغيرها .

٤ - ودر آندر زيد - بمعنى ناصح أو أمين البلاط أحياناً أخرى (١)
وهي كما نرى لا تتفق مع لقب - وزير - العربية في اللفظ والمعنى . . أمّا من ناحية اللفظ فلا موجب للتدليل على وضوحه . وأمّا من ناحية معناه فإنها بعيدة كل البعد عن تحمل المشاق والتبعية والمشاركة للمخليفة، بحمل الأعباء والمسئولية، لأن معنى الرياسة والحكم ثم النصح التي تؤديها ألقاب «كبير الحكام» الساساني لا يمكن أن تشتقها من لفظ وزير العربي .
وسنعالج هذه المسألة مرة ثانية عند الحديث عن منزلة هذا المنصب ورتبة الوزير، وثالثة خلال اختصاصاته لمعرفة الفروق الكبيرة من ناحية اللفظ والدرجة والوظيفة .

* * *

(١) كرستنن - إيران في عهد الساسانيين - ترجمة الدكتور يحيى الخشّاب والدكتور عبد الوهاب عزّام ص ١٠٠، ١٠١ .